فى الشعر المهموس

للأستاذ حسين الظريفى

ليس من البحث فى شىء أن نتناول الظاهرة فى العلم أو فى الأدب أو فى الاجتماع ، ونغفل المصدر الذى انبعثت عنه . كشأن الحديث الذى دار وما يزال دائراً على الشعر المهموس فى (الرسالة) و (الثقافة) دون أن يصل الناقد والمنقود إلى نقطة اتصال ، يتم فيها بينهما التفاهم على ما اختلفا فيه ولا يزالان على خلاف

ولو أن كلا منهما اتجه بالبحث إلى تعيين مصدر هذا الشعر فى أدب المهجر ، لضاقت بينهما شقة الخلاف ، ولقاما بتعليل جروح كثيرة . وما كان القول بتخلف الشعر فى مصر ، أو بنفى هذا التخلف ، إلا علة السير على الهامش وترك الصميم . وهذا ما رغبنى فى أن أقول كلمتى لإملاء فراغ الموضوع

والواقع أن لشعر المهجر طابعاً خاصاً يعرف به . لا من حيث مبانيه ومعانيه فحسب ، ولكن من حيثية أخرى ، هى ذلك الإيقاع الذى يقرع به الأسماع ، أو مدى ذبذبته على حد التعبير العلمى . وهذا ما يحمل على استصواب تسمية هذا الشعر بالشعر المهموس ، وتخطئة نعته بشعر الحنين . لأن هذه التسمية الأخيرة ترتكن إلى انفعال الشاعر بينما تعتمد التسمية الأولى على النزعة الشعرية العامة فى قطر بعينه . فالموضوع يدور على هذه الظاهرة العامة فى شعر المهجر ، تاركا وراءه البحث عن كل انفعال خاص ـ كالحنين ـ لا يقوم إلا إذا قام الباعث عليه . وما يظهر إلا لحاجة ثم يختفى

وأنا أرد نزعة الهمس هذه إلى شعر الشقيقة سورية ؛ لأنها هى الأخرى تتميز بهذا الضرب من الشعر ، وإن كانت تسير فيه خلف الشعر فى المهجر . ويظهر أن شعراء الشقيقة وجدوا فى العالم الجديد ما غذا فيهم نزعة الهمس هذه ، فإذا هى علامته الفارقة فى الشعر على اختلاف أغراضه وفنونه

ونحن نجد ظاهرة الهمس فى النثر إلى جانب ظهورها فى الشعر ، ثم نجدها فى فنون الغناء السورى ، كما نجدها فى لهجة التخاطب . فالقوة الموسيقية فى الإعراب عن الخواطر والانفعالات ؛ وأعنى بها ما اصطلحنا عليه بكلمة (الهمس) لا تكاد تختلف فى ضروب هذه الأساليب البيانية من شعر ونثر وغناء وتخاطب

وقد أطلت التفكير فى مصدر هذه الطاقة الموسيقية فلم أجده إلا فى طبيعة البلاد السورية ، فإنها هى المصدر الذى صدرت عنه هذه الظاهرة وانسجمت على كافة طرق التعبير . لقد فعلت طبيعة البلاد فعلها الخاص فى أعصاب هؤلاء الشعراء وتسربت منها إلى فنون القول موزونا وغير موزون

يقابل ذلك ما ينتج من العراق من شعر ونثر ، وما يألف من ضروب الغناء ؛ فإنه يقف فى الطرف الثانى من المحور ، حيث يقف على طرفه الآخر أدب المهجر . إن الأدب فى العراق كالغناء فيه ، يعتمد فى إيصال الشعور على قوة اللهجة ؛ فإذا كان أدب المهجر يمس شعور القارىء أو السامع برفق ولين ، فإن أدب العراق لا يمسه إلا بشدة . ويقف بين هذين أدب مصر ، فلا هو بالضعيف ولا بالعنيف

ولا محل للقول بتخلف الشعر فى مصر لأن رنة الإيقاع فيه غير هادئة ؛ فالشعر لا يقاس بهذا المعيار ، وإنما ينظر فى مدى ارتقائه على أنه أسلوب بيان ومجموعة خواطر . أما قوة اللهجة فيه فإنها مظهر الحالة العصبية التى كان عليها الشاعر عند بنائه بيوت الشعر . وليست هذه الحالة بجزء من الشعر لتكون جزءاً مما يقاس به مدى ارتقائه وطول بقائه ، ويحكم له أو عليه

وقد نرى الهمس والجرس فى بعض قصائد الشاعر فلا يصطبغ شعره بهذا اللون ، لأنه وليد حالة روحية خاصة تأتلف وطبيعة الموضوع المقول فيه . ومركز الثقل فيما دار ويدور عليه الحديث على لسان الرسالة وزميلتها الثقافة ، هو ندرة ما فى مصر من هذا الشعر وكثرة ما فى أدب المهجر منه . تلك الظاهرة التى أرجعناها إلى طبيعة البلاد . فشاعر المهجر عاش فى وسط لا ترهق فيه الأعصاب ، ومن ثم كان تصويره وتعبيره غير مرهق لأعصاب غيره . أما الشاعر فى مصر أو فى العراق فإنه محاط من حمارة الصيف بما يتعب الأعصاب ويبعد بها عن أن تنفعل إلا بأبلغ المؤثرات . وهو بمدى تأثره هذه مسوق إلى التهويل عند محاولة التأثير فيمن سواه . فكان كل من أدبه وغنائه يعتمد فى التأثير على ارتفاع الصوت فيه وإن صم الآذان